قراءة في المقاربات النظرية الكلاسيكية في علم اجتماع الظاهرة الدينية: أوغيست كونت، دوركهايم، ماكس فيبر،كارل ماركس

د. أنيس اللوز
جامعة سوسة
تونس

ملخص:

تعتبر الظاهرة الدينية من أهمّ الظواهر الاجتماعية التي درسها علماء الاجتماع الكلاسيكيون مثل" أوقيست كونت" و"إيميل ديركهايم "و "ماكس فيبر" و"كارل ماركس."

يستعرض البحث النظرية الوضعية "لأوقيست كونت" التي ترى الدين كمرحلة من مراحل التطور المعرفي ونظرية "ديركهايم" التي ترى الدين عنصرا من عناصر التماسك الاجتماعي، كما يتناول نظرية الفعل الاجتماعي" لماكس فيبر" التي تعتبر الدين محرّكا للفعل والتغيّر الاجتماعي, ويستعرض أيضا نظرية "كارل ماركس" الذي يراه أداة للهيمنة الاجتماعية.

كلمات مفتاحية: الظاهرة الدينية، النظريات الكلاسيكية، علم الاجتماع، الوضعية، الفعل الاجتماعي، الهيمنة الاجتماعية.

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

اللوز، أنيس. (2024، نونبر). قراءة في المقاربات النظرية الكلاسيكية في علم اجتماع الظاهرة الدينية: أوغيست كونت، دوركهايم، ماكس فيبر، كارل ماركس. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 8، السنة الأولى، ص 128-137.

Abstract:

This paper explores sociological perspectives on religion through the lens of classical theories, focusing on the contributions of Émile Durkheim, Max Weber, and Karl Marx. Durkheim's functionalist approach highlights the role of religion in fostering social cohesion and collective consciousness, stressing the significance of rituals and shared beliefs in maintaining social order. In contrast, Weber's analysis examines the relationship between religious values and economic behavior, particularly how Protestant ethics contributed to the development of capitalism. Marx's critical theory, on the other hand, views religion as a tool of social control, reinforcing the status quo and obscuring the realities of class struggle. By comparing these foundational theories, the paper provides a comprehensive understanding of how religion operates within social structures and shapes societal dynamics. Additionally, the study explores the contemporary relevance of these classical perspectives, demonstrating their continued applicability in analyzing modern religious phenomena.

مقدمة

تعد الظاهرة الدينية من الظواهر الاجتماعية الاكثر قدما وتعقيدا وتأثيرا في تشكّل المجتمعات وتحديد قيمه ومعتقداته وطقوسه وطبيعة التفاعل الاجتماعي بين الأفراد والمجتمعات، وهو ما دفع مؤسسي علم الاجتماع إلى الاهتمام بالظاهرة الدينية في سياقات نظرية مختلفة تقدّم رؤى فريدة ومهمة تساعدنا على فهم سوسيولوجي أعمق للظاهرة الدينية.

أولا. إشكالية البحث في الظاهرة الدينية:

يمكن أن نلخص الصعوبة الإبستيمولوجية التي كانت تعترض دراسة الدين بأدوات المعقولية العلمية، في السؤال التالي: كيف نستطيع أن نتخذ الدين، باعتباره ظاهرة متعلقة بالمقدّس، موضوعا للدراسة العلمية؟

لقد أدت هذه الصعوبة في دراسة الدين، إما إلى مقاربته ذات طابع تأملي أسفرت في أحسن نتائجها عن إضفاء المزيد من القداسة والغموض على الظاهرة الدينية، وإما إلى تجاهله وإلغائه من الاهتمام واعتباره إما "وهميا " وجب إزالته، أو" عصابيا " يعانيه الانسان إلا أن أهم بداية لتجاوز هذه الصعوبة أمام دراسة الدين ، كانت مع ظهور علم الاجتماع وبداية النظر لقضايا المجتمع والتاريخ ، من وجهة نظر مغايرة للسابق وبأدوات معرفية ومنهجية قريبة من حرارة الحياة الواقعية للبشر.

ولعلّ أهم مؤشر على هذه البداية، هو اعتبار الدين ظاهرة سلوكية تهمّ العلاقات الاجتماعية للفرد داخل محيطه الاجتماعي، هكذا تحوّل الموضوع من دراسة الدين إلى دراسة ظاهرة التديّن. فما يهمّ عالم الاجتماع ليس الدين كإيمان روحي للفرد والجماعة ومعتقدات تجيب على قلق الإنسان أمام العالم والمصير الوجودي، بل ما يهمّه هو المظهر الاجتماعي والثقافي الذي يأخذه هذا الإيمان على مستوى الحياة العامة للمجتمع والتجسّد المؤسساتي والتنظيمي الذي يترجم هذه المعتقدات إلى معاني تاريخية وسلطة دنيوية.

على أساس هذا التحوّل في الرؤية المنهجية للدين - وإن كان تحوّلا لم يأت على دفعة واحدة- أظهر علم الاجتماع منذ بدايته، اهتماما كبيرا بالتديّن، فكلّ الروّاد المؤسسين لهذا العلم أبانوا على انشغال بالغ بمعنى الدين ووظيفته في المجتمعات الإنسانية.

هكذا نجد كلا من "كونت" ديركهايم" و"فيبر" قد خصّصوا جانبا مهمّا من مساهماتهم لموضوع الدين ، وإذا كان علم الاجتماع قد جاء إثر ثورتين أساسيتين، عرفهما الغرب الأوروبي: الثورة الصناعية والثورة الفرنسية ، هاتان الثورتان اللتان أحدثتا تغيّرات جذرية في كافة النظم التاريخية للمجتمع الأوروبي، حيث جاءتا بأخلاق برجوازية جديدة ، وطرق إنتاج جديدة ، وبأسس اجتماعية للدولة وللتنظيمات لم يسبق أن عرفها المجتمع ، وقد عمل منذ البداية على تقديم جواب على السؤال التالي: كيف يمكن لمجتمع مثل المجتمع الأروبي، القائم على القيم الفردانية أن ينجح في البقاء متلاحما ومتوحدا ؟ وكيف يمكن للنظام الاجتماعي أن يصمد في مجتمع قائم على أساس مشروعية توسيع المصالح الفردية دون أن تؤدي هذه المصالح إلى تدمير المجتمع؟.

على أساس هذا التساؤل، انطلق البحث عن الأشكال الحقيقية للتراضي الاجتماعي، والتي تشكّل لحمة المجتمع وتسمح بحدّ أدنى من الانسجام يمّكن بدوره من تحقيق نزاعات وتحوّلات دون تدمير المجتمع. وكانت إحدى هذه الأشكال الأساسية هي الدين.

ثانيا. الإطار النظري:

-1

كان الشاغل الأساسي "لأوقيست كونت" هو تحديد الأساس النظري للفيزياء الاجتماعية - علم الاجتماع - باعتباره علما جديدا، قادرا على كشف القانون الذي يحكم اشتغال وتطور المجتمع، انطلاقا من الأنواع البسيطة حتى الأشكال الأكثر تعقيدا لتنظيم الحياة الاجتماعية، وقد قاده بحثه إلى الإقرار بوجود ثلاثة مراحل أساسية تحكم تطور المجتمع الإنساني، وتحدد، في كل مرحلة نمط الحياة فيه.

أ- المرحلة الأولى: وهي المرحلة اللاهوتية، يرى كونت أن الإنسان فيها كان يعتمد على رؤى ومبادئ دينية لتفسير عالمه الاجتماعي، بمعنى أن هذا الأخير، يجد معناه في عالم فوق-اجتماعي إلهي.

ب- المرحلة الثانية: هي المرحلة الميتافيزيقية: يرى كونت، أن الإنسان كان في هذه المرحلة، أكثر تقدما مما كان عليه في السابقة، وفيها حاول اعتماد مبادئ فلسفية، تجريدية، لتجاوز تعقيد الحياة الاجتماعية التي تعلو المجتمع الإنساني.

لقد بحث الإنسان عن تفسير للوجود لا يكون خارج هذا الوجود نفسه، ولكن انطلاقا من عناصر بسيطة من الطبيعة. فالنظام الاجتماعي يفهم هنا على أنه قائم على النظام الطبيعي.

ج- المرحلة الأخيرة: وهي المرحلة الوضعية ويسيطر فيها العلم، لقد وصل الإنسان مع هذه المرحلة، في نظر كونت، إلى مرحلة صار التفسير العلمي فيها (أي ملاحظة الوقائع الوضعية وتفسيرها بقوانين تحكم سيرها)، هو التفسير الوحيد للعالم ، سواء الاجتماعي أو الطبيعي.

من خلال هذه المراحل، نفهم أن الدين عند كونت لم يدرس في حد ذاته، بل باعتباره مرجعية لتفسير العالم، استعملها الإنسان في إحدى مراحل نموه الفكري والاجتماعي.

الدين بهذا المعنى، يسعى إلى البحث عن توازن من خلال قيم مشتركة، ورؤى للعالم واحدة.

فالدين عند كونت، وعند "ديركهايم" كما سنرى، هو إرضاء حاجة عميقة عند الإنسان، حاجة من النمط المعرفي والسلوكي، تمكنه من تحقيق انسجام ضروري لبقاء الحياة، وفي مرحلة معينة من تطور حياته.

هذا الفهم الوضعي للدين، هو الذي أدى بـ"كونت"، إلى الدعوة لدين جديد، يلم شمل المجتمع الأوروبي، الذي كان يهدده التمزق، دين أساسه العلم..

-2

منذ كتابه الانتحار، كشف "دوركهايم" عن دور الدين، من خلال ما يلعبه في حياة ومواقف وسلوك الأفراد والجماعات. لذلك نجده سنة 1912، يكتب كتابا هاما عنوانه" الأشكال الأوّلية للحياة الدينية (Les formes élémentaires de la vie religieuse) ويعرّف الدين في هذا الكتاب بكونه "منظومة متلاحمة من الاعتقادات والممارسات المرتبطة مع أشياء مقدسة، بمعنى مفصولة، محظورة، معتقدات وممارسات تجمع في جماعة أخلاقية واحدة، تسمى الكنيسة، كل أولئك الذين ينخرطون فيها"[1].

هكذا، فإن الدين عند "دوركايم"، هو الشكل المنظم، والمؤسساتي للمقدس، من جهة، وهو نمط لإنتاج المعايير الجماعية والوعي الاجتماعي، من جهة ثانية .وهو بالتالي، ما يضمن ويحقق الاندماج الاجتماعي، ويذهب في تحاليله أن الحالات الشعورية القوية، خاصة في حالة الانفعال والغليان الجماعي، هي التي تفرز المقدّسات الجماعية ويعتبر بكون الجانب الديني هو أحد أبرز مكوّنات الوعي الجماعي.

[1] Durkheim (E), Les formes élémentaires de la vie religieuse, 1985, Paris, PUF,p65

ويمكن أن نشير إلى التمييز الذي يقيمه "ديركهايم" بين الدين والسحر، فإذا كان هذا الأخير، هو مجموعة من الطرق، غير العقلانية من وجهة نظر العلم والتقنية، والتي من خلالها يبحث الأفراد عن تحقيق، أو لتجنب بعض نتائج نشاطاتهم، فإن هذه الطرق والسلوكات، لم تستطع أن تنتج مؤسسات مثل الكنيسة، بل فقط تكتفي بإنتاج علاقة بين الساحر وزبونه، على عكس الدين الذي استطاع إنتاج مؤسسات وتنظيمات، لا ترقى أية منظومة أخلاقية أخرى لأن تمنحها.

-3

لم يهتم فيبر بالدين في حد ذاته، بل اهتم به في سياق البحث عن جواب ملائم للسؤال الذي شغل علم الاجتماع منذ بدايته: لماذا ظهرت الحداثة في أوروبا وليس في مكان آخر؟ وإذا كان معروفا أن الحداثة عند فيبر، هي العقلانية في أرقى مراحلها، وهي التي أعطت بالتالي، على المستوى الاقتصادي، الرأسمالية، فإن السؤال الذي انبثقت منه كل أبحاثه في هذا الموضوع هو: ما هي الظواهر العقلانية، غير اقتصادية، التي تستطيع أن تؤثر بجلاء في العقلانية الاقتصادية؟ لقد انصبت كل أعمال فيبر على عامل واحد هو الدين، وكانت تتخذ مسارين اثنين:

- الأول: تبيان المساهمة الإيجابية للأخلاق البروتستنتانية، في تشكيل مصير الرأسمالية.
- الثاني: تبيان المعوقات التي ساهمت بها الديانات الأخرى، في منع بروز الرأسمالية في مناطق أخرى غير أوروبا.

نستطيع أن نلخص أطروحة فيبر حول دور الدين في التغير الاجتماعي على النحو التالي:

- توجد ميولات متوافقة بين نموذجين مثاليين: الرأسمالية من جهة، والبروتستنتانية في تأويلها "الكالفينية"، وما ترتب عن هذا التأويل من أخلاق.
- من جهة ثانية لا يتعلق الأمر بعلاقة سببية، بقدر ما يتعلق بوجود عناصر أخلاقية في الكالفينية، يمكن أن تكون قد ساهمت، في ولادة عقلية تلائم المقاولة الرأسمالية الحديثة[1].

إذا هناك علاقة ترابط، فإذا كانت خاصيات النموذج المثالي للرأسمالية، هي من جهة التراكم الدائم، ومن جهة أخرى وجود سلوك عقلاني للعمل وللمقاولة سلوك يهتمّ باستمرار بعلاقة الوسائل بالغايات، كما يهتم بعلاقة الادخار بالاستثمار، بالربح، ثم بإعادة الاستثمار، فإن هذا

[1] فروند (جوليان)، ترجمة جورج أبي صالح، مركز الإنماء القومي، الطبعة الأولى،1990

النموذج من التصرف الاقتصادي قد وجد في بعض بقاع أوروبا، الأرضية الخصبة للتطور، حيث يسود نموذج من الدين مشتق من البروتستانتية الحديثة: إنه " الكالفينية".

إن روح الرأسمالية، تكون منسجمة، مع نوع من نمط الحياة، مع إيمان ديني، هكذا بين فيبر، أن ظهور الرأسمالية في جزء مهم من أوروبا، هو أمر لم يكن نتيجة توفر ظروف مادية فقط، بل نتيجة توفر ظروف "روحانية" كذلك.

بالتالي، يمكن أن نستخلص أن الدين قادر على أن يلعب أدوارا طلائعية في التغير الاجتماعي والتجديد الحضاري، وليس فقط في تبرير النظام الاجتماعي القائم. أي أنه ليس بالضرورة وهما واستلابا ووعيا مغلوطا، كما أشار ماركس.

-4

بالنسبة لماركس، يعد الدين، من إنتاج علاقات اجتماعية محددة، ولا يمكنه أن يتغير إلا بتغير هذه العلاقات الاجتماعية. فهو، أي الدين، مظهر استيهامي للحياة الاجتماعية، تمثل وهمي للبنى الخفية للعلاقات الاجتماعية وللطبيعة، وهو بالتالي، مجال لاستلاب الإنسان. هكذا، فدور الدين، باعتباره بنية فوقية، وشكلا من أشكال الإيديولوجية، محدد بالبنية التحتية، أي علاقات الإنتاج[1] لهذا يمكن للدين أن يعكس النزاعات الاجتماعية المطروحة في مجتمع ما، سواء لتبرير سيطرة الحاكمين، أو كتعبير سياسي رافض ومتمرد في يد القوى الاجتماعية.

فالدين، بهذا المعنى، وخاصة في المجتمعات المصنعة، أصبح يحيل على الفرد ضدا على الأجهزة الاقتصادية والسياسية المركزية المسيطرة.

من هنا نستطيع أن نقول إن للدين إنتاجات اجتماعية، مثل التضامن، كشكل من التنشئة الاجتماعية، وكالشعائر والطقوس الدينية، التي لها تأثيرات كبيرة على الحياة الاجتماعية والاقتصادية للفرد والجماعة (شعائر كالأضاحي والصلاة وزيارة الأماكن المقدسة) [2] وكالاعتقادات التي تلعب أدوارا على غاية من الأهمية في الحياة الاجتماعية، سواء على المستوى العملي، أو على المستوى النظري فهي تقوي التوازن النفسي والاجتماعي للفرد والجماعة، وتحفز على الإنتاج

[1] Marx (K), Engeles (F) : Sur la religion, Paris, 1960, ed. Social

[2] Mauss (M), Hubert (H) : Essai sur la nature et la fonction du sacrifice, in. Mauss (M) : oeuvres, 1899, Paris, éd. De Minuit 1968-1969

وتنشط العواطف، كما تقوم كقواعد للحياة الخاصة والعامة، وتنظيم العلاقات الاجتماعية والسياسية.

وهكذا، يكون الدين، موردا مركزيا لتطور الحياة الاجتماعية[1].

ثالثا. المناقشة:

1. مكاسب وحدود:

أ- النظرية الوضعية للدين عند "أوقيست كونت":

تقدم النظرية الوضعية مقاربة تطورية مثيرة للتفكير حول دراسة الدين من منظور علمي إذ تركّز على أهمية استخدام م العلوم التجريبية والملاحظة في فهم الظاهرة الدينية، كما تقدّم إطارا معرفيا لفهم تطوّر المعرفة البشرية من خلال المراحل الثلاث مما يساعد في تحليل الظاهرة الدينية كمرحلة تطوّر معرفي إنساني، كما فتحت المقاربة الوضعية وفي نفس الوقت تفتح آفاقا لفهم أعمق للتحديات المعاصرة للمجتمعات مثل العلمانية والعولمة.

إلا أن المقاربة الوضعية تركز فقط على الجانب التطوّري في حين أن الدين ظاهرة معقدة ومتعددة الأبعاد فاعتباره مرحلة متأخرة من مراحل تطور الفكر البشري يجعله يبدو كظاهرة بدائية ويفقده أبعاده الروحية والثقافية التي تقدّم إجابات ومعاني لا يستطيع العلم تقديمها للمجتمعات والأفراد.

ب- النظرية الوظيفية للدين عند "ديركهايم"

لئن اعتبر" ديركهايم" الدين عنصرا هاما في تعزيز التماسك الاجتماعي بفضل الطقوس التي تعزز الانتماء والتضامن، ساهمت مقاربته حول الدين في فهم كيف يمكن للدين أن يؤثر على هوية المجتمعات وتوجيه السلوك الاجتماعي وتعزيز القيم المشتركة بين أفراد المجتمع، إلا أن التركيز على الجانب الوظيفي للدين في تعزيز الوحدة الاجتماعية يتجاهل الصراعات التي قد يقدمها الدين بين الطوائف الدينية والتعصّب الذي يصل إلى حدّ الراديكالية والعنف والانقسامات.

[1] **منتدى وزارة التربية والتكوين –السعودية-** في موقف علم الاجتماع من التدين، **انظر موقع الأنترنات: /http://www.moe.gov.sa**

ج- نظرية الفعل الاجتماعي للدين عند "ماكس قيبر"

تمكننا نظرية ماكس فيبر حول الدين من فهم تأثير الدين ودوره في التغيّر الاجتماعي وخصوصا فهم كيفية تأثير القيم الدينية على السلوك الاقتصادي فهي ترى ان الدين يمكن أن يكون أداة للتغيّر الاجتماعي كما كان الحال في تأثير البروتستانتية على ظهور الرأسمالية وإن كانت فرضيته هذه افتقرت إلى أدلة أمبيريقية ، فقد اعتمد على ملاحظات نوعية، كما أن تحليلاته في معظمها وقعت في العمومية ، حيث استخدم مثال البروتستانتية الأوروبية ، وعمّم استنتاجاته على نطاق أوسع وهو ما يغفل دور تأثير باقي الديانات في سياقات ثقافية متنوعة مثل الإسلام والهندوسية.

د- نظرية الدين كأداة للهيمنة عند كارل ماركس:

تقدّم هذه النظرية تحليلا نقديا لكيفية استخدام الدين كأداة هيمنة تستخدمها الطبقات المهيمنة والسيطرة على الطبقات العاملة مما يحافظ على الوضع القائم ضمن إطار الجدلية المادية التاريخية فيصبح نوعا من أنواع الوعي الزائف الذي يبرّر ويخفّف معاناة المستضعفين، حيث يقدّم وعودا بالأمل والخلاص مما يجعلهم يتقبلون آلامهم ومعاناتهم ،وهو ما يعبّر عنه بقوله أن الدين هو أفيون الشعوب، ذلك أن الدين يعمل كمخدّر وظيفته تبرير الظلم الاجتماعي والتكيّف معه ، إلا ، هذا التحليل يعتبر تبسيطا لدور الدين حيث يتجاهل الجوانب الروحية والأخلاقية التي يمكن أن يقدمها الدين للفرد والمجتمع، إذ لطالما كان الدين مصدرا لإلهام الشعو في تحقيق قيم الإنصاف والعدل ذلك أن العديد من الحركات الدينية لعبت دورا هاما في النضال من أجل العدالة الاجتماعية وحتى الحقوق المدنية مثل الدور الذي قامت به حركة مارتن لوثر كينغ جونيور في الولايات المتحدة الأمريكية الذي طالما استخدم المواعظ الدينية والأناجيل في خطابه الشهير " انا أحلم"، كما استندت رؤيته للعدالة الاجتماعية إلى القيم المسيحية مثل المحبة والرحمة والتسامح.

2. تكامل هذه المقاربات

رغم تباين الأسس النظرية والمنهجية لكل هذه المقاربات الكلاسيكية التي تناولت الدين موضوعا للدراسة السوسيولوجية فإنها تمكننا من رؤية شاملة ومتعددة الأبعاد لدراسة الظاهرة الدينية وفهم أعمق لها إذ يمكن استخدام نظرية "ديركهايم" لفهم دور الدين في التماسك

الاجتماعي ونظرية فيبر لتبيّن تأثير الدين على الفعل الاجتماعي في حين تمكننا نظرية كارل ماركس في فهم توظيف الدين والوضعية في فهم تطوّر المعرفة.

خاتمة:

تقدم النظريات الكلاسيكية في علم الاجتماع رؤى متعددة لتحليل وفهم الدين كظاهرة اجتماعية وفهم متنوع لدور الدين في المجتمع وقد تفرعت على هذه النظريات مدارس ومساهمات.

لائحة المصادر والمراجع

المراجع باللغة العربية:

- فيبر (ماكس) ، الأخلاق البروتستانية وروح الرأسمالية، ترجمة محمد علي مقلّد، مركز الانماء القومي، بيروت، لبنان ،1990

المراجع باللغة الفرنسية:

- Durkheim (E), Les formes élémentaires de la vie religieuse, 1985, Paris, PUF
- Marx (K), Engeles (F) : Sur la religion, Paris, 1960, ed. Social
- Mauss (M), Hubert (H) : Essai sur la nature et la fonction du sacrifice, in. Mauss (M) : oeuvres, 1899, Paris, éd. De Minuit 1968-1969

المو اقع الإلكترونية باللغة العربية:

- منتدى وزارة التربية والتكوين –السعودية- في موقف علم الاجتماع من التدين، أنظر موقع الأنترنات: http://www.moe.gov.sa